

## البيولوجيا الجنسية

### الغريزة الجنسية

إن التوالد من الخصائص الأساسية للكائنات الحية على اختلاف سراتها ، وهو الوسيلة التي تصل بها الحياة إلى الاستمرار ، وتصل بها الأنواع إلى البقاء . ولو درسنا أحوال الكائنات المختلفة لوجدنا أن سائر الوظائف تبدو "ثانوية" بالنسبة لهذه الوظيفة . وحياة الفرد نفسها تتكيف تكيفا يسمح للنوع بالاستمرار . وكثيرا ما تنتهي حياة الفرد بانتهاء أدائه لهذه الوظيفة كما يحدث في حالة الذكور في كثير من الحشرات . فكأن الطبيعة تضحى بالفرد حيث يستفيد النوع من هذه التضحية ، فالذكور في خلايا النحل تعتبر طفيلية على الخلية بمجرد أدائها لوظيفة تلقيح الملكة ، فتطرد بعيدا وتمنع من دخول الخلية ، كما أن الذكر في "فارس النبي" يصبح طعاما للأنثى بمجرد انتهائه من تلقيحها .

قاذا وصلنا إلى مرتبة الطيور والثدييات نجد أن الإناث تحمل صغارها في داخلها أو تحتضن بيضها لمدة متفاوتة تطول أو تقصر ، ولا تستطيع الأنثى أن تلد في حياتها أكثر من عدد معين من الصغار ، تحدد مدة الحمل وطول حياة الفرد وفترة الخصوبة في عمر كل أنثى ، فاذا أضفنا إلى ذلك طول مدة الحضانة التي يقتضيها نمو كل وليد ، أصبح للذكر أهمية دائمة تختلف عن أهميته الوقتية في عالم الحشرات . فضلا عن أن قيام الذكر بوظيفة جديدة في أغلب الأحوال هي وظيفة "الحماية" أو المساعدة في جلب الطعام للصغار ، جعل الحياة الاجتماعية عند هذه الحيوانات تتكيف تكيفا جديدا ، ويبدو فيها في كثير من الأحيان تلازم وثيقة أو دائم بين الذكر والأنثى ، يمكن أن نعتبره أساسا لتكوين "العائلة" .

ونجد العائلة عند الإنسان تتخذ بالنسبة لظروفه الخاصة صورة تختلف عن صورتها عند سائر الحيوان .

(١) Sexual وتختلط كلمة جنسية بهذا المعنى في اللغة العربية بكلمة Racine ، وربما كان حل هذا الخلاف أن تترجم الثانية منهما «عنصرية»

والعائلة في الانسان عامة توجد في جميع المستويات ، ومختلف الحضارات ،  
والصورة الغالبة هي الصورة المألوفة لنا والشذوذ فيها نادر .

والعائلة السائدة مكونة من ذكر وأنثى وأبنائهما . والعائلة عند الانسان وحيدة  
اجتماعية "جنسية" وهي تؤدي هاتين الوظيفتين معا ، عن طريق الاتصال  
الخارجي والداخلي ، والعائلة هي المؤسسة التي يحدث عن طريقها استمرار النوع  
فلا غرابة إذا كانت مختلف الجماعات قد عملت على حفظ كيان العائلة بمختلف  
الأساليب .

ولو نظرنا الى الفريضة الجنسية عند الانسان لوجدنا أنها في مركز يافت النظر  
حقا .

فهى لا تمارس كما تمارس عند الحيوانات ، أو كما تمارس أغلب أنواع النشاط  
الأخرى عند الانسان — أو بتعبير آخر "غرائز" الأخرى — ، بل انها تخضع  
ألوان من الخفاء والتخبئه . فأعضاء التناسل نفسها تُخفى عن الأعين وتعتبر  
سوءات وعورات . وشعور الناس نحوها في الأغلب شعور بالعار والاشمئزاز ،  
لا تذكر أسماءها إلا همسا وفي خفاء . أما التناسل نفسه فقد وضع القانون والتقليد  
والعرف له نظاما يجعل ممارسته أمرا لا يتأتى الا طبقا لشروط خاصة ، وفي ظروف  
خاصة ، فإذا خرج الفرد على هذه النظم فإما أن يناله القانون ، وإما أن ينبذه المجتمع .

ولو بحثنا القوانين والتقاليد في مختلف البيئات من بدائية ومتحضرة ، فإننا نجد  
أنه تبرز فيها ناخيتان . الأولى : حماية المجتمع من شرور الدافع الجنسي ، والثانية : حمايته  
من اخطار الاعتداء . ولم يكن وضع هذه القوانين والتقاليد عبثا ، بل إن وجودها  
ليرهن على أن المجتمع ينظر الى هاتين النزعتين "الجنسية والاعتدائية" على أنهما  
نزعتان قويتان جدا ، يحتاج الأمر للتخلص من أخطارهما الى جهد جهيد . فأما  
النزعة الأخيرة فقد حرمها بوجه عام (وإن كان قد أبقاها كحق من حقوق "الحاكم" ،  
ولكنه لم يستطع تحريم الأولى فنظمها وسن القوانين والشرائع التي تحدد المحظور  
والمباح فيها .

والإنسان يختلف اختلافا أساسيا عن الحيوانات الأخرى ، فهو بما وصل إليه  
من ذكاء وقدرة على التفكير والتخيل وغير ذلك ، قد دخل في حياته النفسية عامل جديد

من الوجهة البيولوجية، وأكسبه هذا العامل كفاءة وقدرة من نوع جديد بالنسبة للرتب الحيوانية الأخرى، ثم إن طبيعة حياته الاجتماعية قد أدخلت عاملاً آخر عظيم الخطورة في حياته النفسية . وهذان العاملان يتركزان فيما يمكن أن نسميه "غرائز المحافظة على النفس" (١) فهذه الغرائز التي ترمى إلى المحافظة على كيان الفرد، إنما تستخدم ذكاء الإنسان وقدرته العقلية لكي يطابق بين سلوكه وبين المقتضيات التي تقتضها موهبته الاجتماعية . فهذه الغرائز ترمى في مجموعها إلى صيانة الفرد . وتبقى الغريزة الجنسية ووظيفتها الأساسية حفظ "النوع" والفرد لا يدخل في حسابها إلا باعتباره ناقلاً للنوع، وهو كما رأينا في عالم الحيوان كثيراً ما يُعتبر عالة على النوع فيُعدم أو يُترك ليفنى بعد أن يؤدي الوظيفة المطلوبة منه . فالغريزة الجنسية تعتبر من الوجهة البيولوجية غريزة "لا فردية" بل كثيراً ما تكون ضد الفرد . ومقتضياتها لا تتماشى مع مقتضيات الذاتية الفردية دائماً، وهي تستخدم معها اصطداماً في حالة الإنسان خصوصاً بالنسبة لما ذكرناه من خصائصه الاجتماعية والعقلية، وهذا الاصطدام لا مخلص منه، وهو يؤدي إلى نتيجتين: الأولى أن تتخذ الغريزة وسائل وطرقاً لا تتناهى في ظواهرها مع المقتضيات العقلية والاجتماعية، أي أنها تتماشى مع مقتضيات "غرائز المحافظة على النفس" لكي تستطيع أن تؤدي وظيفتها في النهاية وهي الوظيفة التي ترمى إلى حفظ النوع، والثانية أنها إذ تخضع لظروف المجتمع إنما تعطي الإنسان فرصة للزيد من الرقي العقلي والاجتماعي، لأن اعتبارها "عقبة" يقلل من الوجهة العملية . ومعنى هذا باللغة الواقعية، أن المجتمع يضع النظم والقوانين والتقاليد والعادات التي تحد ممارسات هذه الغريزة بحيث لا تتضارب مع كيانه ثم إذ يطمئن من هذه الناحية ينصرف إلى ترقية مستواه وإلى بلوغ غايات معنوية وثقافية أعلى . بل إن هناك ما هو أهم من ذلك، لأن هذه النظم والتقاليد... الخ إنما تحد من نشاط الغريزة الجنسية فتجعل من الممكن أن يستخدم ما زاد عن الحاجة من هذا النشاط نفسه في بلوغ الغايات الاجتماعية، بل وتصبح دافعاً للإنسان إلى المزيد منها .

غير أن هذا الاصطدام نفسه كثيراً ما يضع الفرد أو المجتمع في موضع لا يُحتمل . ذلك أن قبول الغريزة للضغط، وتمشيها مع المقتضيات الاجتماعية، له حدود لا يمكن

(١) Self-Preservative Instinct أنظر :

تجاوزها الا على حساب الكيان العقلي للفرد أو للمجتمع ، ولذلك تظهر على بعض الأفراد آثار الاضطراب العصبي نتيجة لعشاهم في حل هذه المشكلة ، كما تبدو مثل هذه الآثار على مجتمعات بأسرها فتؤدي إلى الثورات والحروب وغيرها من مظاهر " الاضطراب العقلي الجمعي " .

وعما يزيد في تعقيد المشكلة أن الغريزة تبدأ في الظهور قبل أن يستوفى الفرد نصيبه من الذكاء ومن تفهم النظم الاجتماعية ، فظهور الغريزة الجنسية في الطفولة بكامل قوتها يجعلها تصطدم بالمجتمع الخارجي اصطداما مباشرا ، ولا تكون ظروف هذا الاصطدام تحت رقابة متورة من العقل ولذلك فإنها تؤدي غالبا إلى نتائج منطرفة من الإشباع أو القمع ، ويؤدي ذلك إلى حل العقدة في الظاهر ولكنه يضع أساس الاضطراب العصبي المستقبلي للفرد .

وهذه الصلة بين الاضطراب العصبي وبين الغريزة الجنسية هي التي كشفت الطريق لفرويد ليكون نظرياته في التحليل النفسي . ويقال إن الذي لفت نظر فرويد إلى هذه الحقيقة هو أستاذه " شاركوه " الذي قال في حالة مريضة بالهستيريا : " في هذه الحالات ، الجنس دائما هو السبب الرئيسي ، دائما ، دائما ، دائما " . وقد وجد فرويد في الحالات التي فحصها أنه دائما كان هناك عنصر ينتسب إلى الدافع الجنسي . ولكن سرعان ما حتمته مشاهداته إلى محيط آخر . فقد وجد أن للأعراض المرضية صلة بعهد الطفولة . ومالبت أن يهره ذلك التشابه العجيب بين أعراض المرض العصبي وبين حياة الطفولة ، ومالبت أن يضع يده على كشف من أهم كشوف التحليل النفسي وهو " الجنسية الطفولية (١) " .

فقد وجد أن الأعراض الراهنة للرض إما جنسية صريحة أو مضمرة ، ولكنه إذ تتبعها إلى الطفولة وجد أنها تكشف عن نوع من الجنسية عند الأطفال . لا يمكن أن يخطئه المدقق المحايد في نظريته .

فهذا " التعلق " الشديد من ناحية الطفل بأبويه وغيرهم ، وما يتناوب الطفل من نوبات الغيرة والغضب والرغبة في الاستئثار بهم يجب ، وبحريه وراء اللذة

وحرارة العاطفة التي تبسده في معاملاته ، كل هذه ظواهر تفصح عن طبيعة متناقضة جياشة لا يشبهها إلا أشد حالات العشق والشبق عند البالغين. وللغريزة عند الأطفال صورة غير تلك التي تراها عند الكبار<sup>(١)</sup> . ولكن التشابه بينهما تشابه أساسي هو الذي جعل فرويد يصرُّ على أنهما ترجعان إلى أصل واحد .

فالغريزة صورها "الطفالية" وهذه الصور نفسها تلاقى من القمع والمقاومة ما تلاقيه نظيرتها عند الكبار بل أكثر، ونتيجة القمع في حالة الأطفال أوكده، ولذا كان أثره أعمق وأبعد .

فإذا رجعنا إلى التكوين العائلي الذي ينشأ فيه الطفل نجد أن التيارات المختلفة التي تتجاذبه متعددة مختلفة الاتجاه، بل متناقضة. ففي محيطها تجدد غرائزها الأشباع والقمع متجاورين متلازمين ، وفيها يبعد الاقتراب والابتعاد، المحبة والكراهية، الألفة والغيرة . والأسرة هي التي تنقل إليه التقاليد والعرف الاجتماعيين . وفي هذه الفترة من حياته يمر في ظروف ان يكون لها نظير في حياته المستقبلية . فهو يصطدم لأول مرة بالحدود والموانع والأوامر والنواهي ، كل ذلك وهو خالي الذهن مما وراءها من حكمة ، لا يمتلك إلا رغباته وشهواته ، فلا تلبث هذه أن تصطدم بتلك ، ولا يلبث أن يشعر بحرارة الاصطدام ، فيثور ويفضرب ويدافع ويهاجم ، ولكنه لا يلبث أن يدرك أنه يحارب في معركة لم تتكافأ فيها القوى ، فينتهي به الأمر إلى التسليم . وهو إذ يسلم إنما يسلم هذه الرغبات والشهوات نفسها فيختفي ، وتغلى الطريق لغيرها مما يتناسب مع المجتمع .

وعهد الطفولة الأولى زانر بالحوادث النفسية. والجديد الذي أضافته مدرسة التحليل النفسي إلى معلوماتنا هو أن هذه الحوادث تعتبر جنسية، وذلك هو الذي دعا إلى قمعها واستبعادها من الشعور. ونسيانها نسياناً تاماً، بل إن النسيان لا يقتصر على الحوادث نفسها بل على كل ما يحتمل أن يذكر الإنسان بها ، ولذا كانت

(١) أنظر ص ٧٧ وما بعدها .

هذه الفترة من حياتنا فترة تكاد تكون منسية نسيانا تماما لا يبره مجرد مضي الزمن ،  
لأننا نذكر من الحوادث ما سرت عليه عشرات السنين ، ولكن الطفل ذا الثماني  
السنوات لا يكاد يذكر من ماضيه الذي سر عليه ستان شينا ، في الطفولة الأولى  
إذن توضع أسس الاشعور لأنه في الطفولة الأولى يظهر نوع من الجذبية الناتجة  
المنافسة .

وهكذا ترى كيف جمعت ممارسة التحليل النفسي بين الاشعور والجذبية  
الطفلية وحياة الطفولة .